الفصل الثانى عشر

إذ ينفلت الزمام

انتصف ليل السادس عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦١ ... وكان الحفل المقام بمناسبة بلوغ "بول دريهر" الخامسة والأربعين على وشك الانتهاء، حيث شارك "دريهر" الاحتفال بذكرى مولده مجموعة كبيرة من الأصدقاء والزملاء الذين أمضوا تلك الأمسية فى الرقص والشراب، حيث أدرك معظمهم أن جمعهم لم يكن للاحتفال بذكرى مولد "دريهر" فحسب، وإنما كان حفلا لتوديعه.

فبعد أربعة أعوام من العمل في ميونيخ رئيسا لشئون اللاجئين، قرر "دريهر" الاستقالة من منصبه، والعودة إلى "قواعده" ... "وكالة الاستخبارات المركزية" بواشنطن. لقد كان الرجل يفضل نمط الحياة في ميونيخ، فقد أحب المدينة وأحب أهلها ... إلا أن رحلته قد بلغت منتهاها.

وكان لاجئون عدة قد حضروا الحفل لتقديم الشكر إلى "دريهر"، وكان جلهم من اللاجئين السوفييت الذين عملوا في "راديو الحرية" ... أما المسلمون ممن عملوا لحساب "بوب دريهر"، أو "سعيد رمضان"، فمن الأرجح ألا يكون مثل هذا الحفل يناسبهم. أما "دريهر"، فقد سعى جاهدا إلى إيراد الكلمات المناسبة، فقال في ألمانيته الركيكة: "إنني أومن بأننا أناس يجمعنا هدف موحد".

إن "دريهر"، وعلى خلاف سابقه "إسحاق باتش"، قد عمد إلى استتباب

مجموعات جديدة كجزء من استراتيجية أكثر صرامة. فالطلبة المسلمون وسعيد رمضان قد لقى جميعهم دعما وموآزرة ما كانا ليخطرا ببال أحد قبل سنوات قلائل مضت ... فقد نجا سعيد رمضان، قبل أسابيع فقط من حفل الوداع هذا، من محاولة لإطاحته من قبل "الجنود السابقين" العاملين لحساب "غرهارد فون منده"، ليصبح "الملك المتوج" للجنة بناء مسجد ميونيخ دون أدنى منافسة من أحد كائنا من كان. وكان ذلك - بطريقة أو بأخرى - بفضل جهود "بوب دريهر"، الذى قام بدعم رمضان وتمويل مؤتمراته - حيث خلق منبرا لذلك الإسلاموى المصرى فى أوروبا، فضلا عن استدعاء دعم بعض من الذين تعاونوا مع الألمان فيما مضى، من أمثال الزعيم القوقازى "أحمد نبى ماغوما"، والزعيم "سعيد شامل" الداغستانى. إن الولايات المتحدة كانت قد سعت، فى الماضى، إلى تجنيد "فون منده" لإدارة شئون اللاجئين، إلا أن "دريهر" قد عمد إلى إبعاده جانبا. كذا، فقد كان هناك الدور الذى

اضطلع به "دريهر" لتوطين رمضان في أوروبا ... الأمر الدال بجلاء على النشاط الوافر وروح المبادرة، وهو ما كان المرء ليتوقعه من "بوب دريهر" ... مقاتل الحرب الباردة، والخبير المحنك بأوديسا وموسكو، ورجل "وكالة الاستخبارات المركزية" الحريص على إعادة تنظيم "راديو الحرية" على نحو جذري، وكذا غربلة صحافييه الذين يأملون أن يكونوا من ذوي الشأن في ميونيخ.

إذا ... فبماذا عاد كل ذلك على الولايات المتحدة الأمريكية؟ لقد كان من الجلي أن "دريهر" قد كسب حليفا هاما إلى صفه. ففيما يتعلق بالشيوعية، فإن جماعة "الإخوان المسلمين" والولايات المتحدة الأمريكية يفكران بالأسلوب نفسه. فعلى سبيل المثال، قام سعيد رمضان في الرابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦١ بإرسال خطاب إلى "آرثر شليزنغر-الابن" ... أحد المستشارين البارزين للرئيس الأمريكي المنتخب حديثاً - جون فيتزجيرالد كينيدي ... جاء فيه: "حين يكون العدو مسلحا بأيديولوجية ديكتاتورية شمولية، وتنتظم في خدمته كتائب من مؤمنين أوفياء مكرسين لتلك الأيديولوجية ... فإن أولئك المنتهجين سياسات مغايرة لابد وأن يخوضوا حلبة المنافسة باعتماد النوع ذاته من الفكر والأسلحة، بحيث تكون روح تكتيكاتهم مناقضة تماما لعقيدة العدو وإيمانه - وأن يكون الهدف دحض تلك العقيدة وذلك الإيمان. فوحدها القوى الشعبية، في ردات فعلها الصادقة، هي التي تتمكن من مواجهة أخطار الاختراق الشيوعي". لقد كان الخطاب أشبه ما يكون بالتماس لإدارة كنيدي الجديدة لاستئناف الشراكة الاستراتيجية ما بين الولايات المتحدة الأمريكية والإسلامويين من أمثال رمضان.

بيد أن الأحداث المتبدية في ميونيخ قد ألقت بظلال من الشك على مدى ما لشراكة كتلك من فاعلية وثقل. إذ كان رمضان، حينذاك، مسئولا عن مشروع بناء المسجد، إلا أنه كان يعمل في استقلالية تامة عن الولايات المتحدة. أما الألمان

والأمريكيون، فكان يجمعهم الهدف ذاته والفكرة عينها: إحكام السيطرة على المسجد وإحكام السيطرة على المسلمين بألمانيا، ومن ثم استخدامهم فى مجابهة الشيوعية ... وكان مسلمو ألمانيا ما يزالون فى ميونيخ، فكان يمكن - بالتالى - استخدامهم فى الأغراض الدعائية المستترة، إلا أن رمضان لن يكون زعيما لهم فى المشهد العالمى. إذ كان يبدو أنه لم يكن معنيا بتوحيد المسلمين لمجابهة الشيوعية على النحو الذى خطط الأمريكيون له. ويوضح الأمر بجلاء تحليل لوكالة الاستخبارات المركزية يرجع إلى عام ١٩٥٣ ذهب إلى أن رمضان كان معنيا بشدة بحشد الأفراد من حوله التماسا للنفوذ ... ذلك النفوذ الذى كان فى حاجة إليه لاستخدامه لنشر رؤية جماعة "الإخوان المسلمين" عن الإسلام، حيث عمد إلى إزاحة أولئك الذين لم يساعدوه فى تحقيق ذلك الهدف. لقد كان معظم مسلمى ميونيخ غير ذى نفع له، إذ كانوا جنودا سابقين طاعنين فى السن ذوى دراية دينية محدودة. ولعل الأهم كونهم أناسا ناضجين دنيويى النزعة يتسمون بالعناد وتنحصر اهتماماتهم فى أوطانهم الأم. أما رمضان، فكان يريد كوادر شابة فتية تتسم بالانطباعية والتلقائية تسهل قولبتهم لاستخدامهم فى نشر ثورته على امتداد العالم. لقد كان الرجل يقود حركة جديدة سعت إلى مداواة جروح العالم وأوصابه عن طريق العودة إلى تعاليم الدين. إذا ... فلا عجب ألا يكون قد وحد مسلمى ميونيخ، إذ لم يكن ذلك ليتطرق إلى فكره أو يدور بخلده ألبتة ... فالرجل لم يكن راغبا فى جماعة "مظلية"، بل كان يصبو إلى خلية هادرة.

أما الأمريكيون فكانوا ينسحبون من المشهد، إذ قررت أمكومليب عدم الاستعانة بآخر ليحل محل "بوب دريهر". ففى المقابل، سيعمد نائبه "ويليام كلمب" إلى الإبقاء على المدفوعات الممنوحة لجماعات اللاجئين، إلا أنه لن يحتضن مواهب أو مهارات جديدة، وسيفقد الاتصال بسعيد رمضان الذى كانت بؤرة اهتمامه تنصب على

"الإخوان المسلمين". أما الأمريكيون فى ميونيخ، فقد أضحوا غير ذوى نفع له، فلم يأخذ أيا منهم زمام المبادرة لإحياء تلك العلاقة التى كانت تربطهم به ذات يوم. وأما خطاب رمضان الذى أرسله إلى "شليزنغر"، فلم يتم الرد عليه. كذا، فقد تم حل إدارة شئون اللاجئين، فيما قامت أمكومليب بتغيير موح ذى مغزى ودلالة. ففى عام ١٩٦٤، وكما فى مرات عديدة سابقة، عمدت أمكومليب إلى تغيير اسمها ليصبح "لجنة راديو الحرية"، ومن ذلك الحين فصاعدا سيكون اهتمامها منصبا على خدمات البث. أما لاحقا، حين سيكشف عن دور "وكالة الاستخبارات المركزية" وعلاقتها بالمنظمة، وذلك فى بداية سبعينيات القرن العشرين، سينفصل "راديو الحرية" عن الوكالة ليندمج فى محطة الإذاعة الشقيقة، "راديو أوروبا الحرة". كذا، فسيتم إخضاع محطتى الإذاعة هاتين إلى إشراف "مجلس الإذاعة الدولية" الذى أنشئ عام ١٩٧٣، والذى كان يدار من قبل وزارة الخارجية الأمريكية.

وليس أدل على تغيير الولايات المتحدة لسلم أولوياتها من إرسال "بوب دريهر" إلى فيتنام، حيث ساعد الفيتناميين الجنوبيين فى إدارة محطات إذاعية تعمل كغطاء ضمن وحدة العمليات الخاصة السرية المدعومة من قبل "وكالة الاستخبارات المركزية"، والمعروفة "بالقيادة العسكرية لتقديم المساعدة لفيتنام/ فريق الدراسات والملاحظات" ... حيث عمل "دريهر" بوحدة الدعاية السرية بها لمدة دورة واحدة. ويمثل ما كانت الحال فى ميونيخ، بدا "دريهر" بعيدا عن الأجواء المحيطة به لا يدرى شيئا عن طبيعة الأثر الذى انطوى عليه نشاطه بفيتنام ... إذ لم يكن يتحدث الفيتنامية، كذا فلم تكن لديه أدنى فكرة عما يتم بثه هناك. لقد أرسل الرجل إلى فيتنام كخبير استشارى حيث ساعد فى ضخ ملايين الدولارات فى نشاط كان يجهله بالكلية.

وفى عام ١٩٧٢، أحيل "دريهر" إلى التقاعد حيث كان يبلغ السادسة والخمسين. وكان الرجل محتفظا بشقته الرائعة فى "فيرجينيا"، والتى يمكن منها رؤية مبنى

"الكابيتول" من بعد. وكانت سفراته الخارجية قد توقفت، وبذا طويت صفحة من صفحات حياة "دريهر" الذى وافته المنية فى الرابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤ فى فيلادلفيا إثر سكتة دماغية ألمت به.

فى أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢، أقام معهد الشرق الأوسط بواشنطن اجتماعا بفندق "ستاتلر هيلتون" حفل بكوكبة من الحضور، وكان محور الاجتماع: "الإسلام فى الاتحاد السوفييتى" ... حيث كان هذا الحقل من الدراسات يكتسب أهمية متزايدة وزخما متناميا، بعد أن كان هملا فيما مضى. هذا، وقد قامت وزارة الخارجية الأمريكية بتمويل جانب من نفقات الاجتماع الذى كان الهدف من وراء إقامته "فتح الأبواب لدراسة آسيا الوسطى"، وذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية. وكان جميع نجوم هذا الحقل ضمن حضور الاجتماع ... من أمثال غريب سلطان وباى ميرزا هاييت، فضلا عن أكاديميين مرموقين من جميع أنحاء العالم. كان الكل حاضرا فيما عدا "غرهارد فون منده".

ففى خطاب بتاريخ السادس من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢ إلى غريب سلطان، كتب "فون منده" يقول: "إننى لم أتلق دعوة لحضور الاجتماع، وذلك على الأرجح للأسباب التى ذكرتها لى". وكان "فون منده" يأمل فى أن يعمد إلى معارفه فى أمكومليب للحصول على دعوة لحضور الاجتماع. واستطرد "فون منده" قائلا: "ومن جهة أخرى، فقد وجهت دعوة لحضور الاجتماع إلى الدكتور باى ميرزا هاييت، وهو الذى يعمل موظفا بوحدة دراسات أوروبا الشرقية، تلك الوحدة التى أديرها أنا ... أنا النازى الكبير على حد زعمهم ... إننى أستشعر هذا التمييز ظلماً لى".

وعلى أية حال، وبغض النظر عن كونه ظلماً أو إنصافاً ... فقد كانت تلك الواقعة تأريخا لبداية عهد جديد اتسم بصعوبة التغاضى عن الميول النازية العميقة لأناس من

أمثال "غرهارد فون منده" ... إذ شهد ذلك العهد الجديد إعدام "أدولف إيخمان" فى القدس ... إذ كان "إيخمان" هذا أحد مهندسى الهولوكوست بحق اليهود ... كذا، فقد شهد العهد الجديد قيام "راؤول هيلبرغ"، وهو مؤرخ وعالم سياسى أمريكى نمساوى المولد بإصدار كتابه: "إبادة يهود أوروبا" ... ذلك السفر القيم. فخلال أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته، كان الهولوكوست أقرب ما يكون إلى المحرمات من حيث التداول. إلا أنه، مع بدايات هذا العهد الجديد، صار أحد حقول الدراسات الجادة الرصينة، وأضحى الناس يدركون من شارك فيه. وهنا ... يتذكر "ريتشارد إدغار بايبس"، وهو أكاديمى أمريكى من أصل بولندى، فى لقاء جمعنى به فى الخامس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٦ بمدينة "كيمبريدج" بولاية "ماساتشوستس" الأمريكية ... لمحات من الماضى، حين كان أستاذا فى مقتبل العمر بجامعة "هارفارد"، إذ أسهم فى تنظيم اجتماع فندق الهيلتون، المذكور آنفا. يقول "بايبس": "لقد كان فون منده معروفا بكونه نازيا ... وذلك بالقطع هو السبب الذى دعا المنظمين إلى عدم توجيه الدعوة إليه بالحضور، إذ كانت سمعته معلومة جلية".

كذا، فقد سارت خطوات استبعاد "فون منده" عن مشروع مسجد ميونيخ على نحو مطرد ... إذ لم يعد لديه أية معارف بلجنة بناء المسجد. وفى بدايات عام ١٩٦٢، أعلن الجنود السابقون انسحابهم من المجموعة، وهو ما أضفى صفة الرسمية على حقيقة ظلت قائمة لعام أو نحوه. أما سعيد رمضان، فقد كان - فى تلك الأثناء - يمضى قدما ويغذ السير. وتوكيدا لطموحاته العراض فيما يخص المجموعة، عمد رمضان إلى تغيير اسمها من لجنة بناء مسجد ميونيخ لتصبح "الجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا".

وقد منى "فون منده" بخسارة أخرى بوفاة "على قنطمير" فى السادس عشر من نيسان/ أبريل ١٩٦٣ عن عمر قارب السابعة والسبعين (١٨٨٦/٥/٩ -

١٦/٤/١٩٦٣). فلسنوات عديدة، كان "فون منده" يساعد ذلك الزعيم كليل العينين. وحين توفى "قنطمير"، أرسل "فون منده" إشارة إلى ضباط الاتصال الاستخباراتيين ملتمسا المساعدة فى محو أية آثار دالة على تعاون الثانى (فون منده وقنطمير) ... حيث أورد فى تلك الإشارة: "إن السيد قنطمير، الذى جمعتنى وإياه علاقة صداقة، كان يعمل لسنوات عدة لصالح عدد من الوكالات الألمانية، حيث عمدت ألمانيا إلى الاضطلاع بنفقات تمويله. لذا، فإننى أرى أنه من مصلحة ألمانيا أن تبحث فيما خلفه الرجل مما يدل على ذلك التعاون".

هذا، وقد تأكد عجز "فون منده" من خلال علامات الاستفهام التى حامت حول العمال الأتراك الذين وفدوا إلى ألمانيا ... (العمال الضيوف) Gastarbeiter. فمنذ الستينيات، كان اقتصاد ألمانيا الغربية، الذى شهد طفرة وازدهارا كبيرين، يجذب العمال الأجانب. ونتيجة تزايد أعداد أولئك العاملين، كتب أحد ضباط اتصال "فون منده" الاستخباراتيين للسؤال عن ميلهم إلى إثارة القلاقل ... أما السؤال، فقد اشتمل على مفارقة بادية: فلسنوات طويلة ... عمد "فون منده" إلى صوغ استراتيجيات كبرى لتوظيف الإسلام واستغلاله دون أن يكون تحت إمرته عديد من المسلمين. أما الآن، فثمة العديد من المسلمين وقد وفدوا إلى ألمانيا الغربية، إلا أن "فون منده" لم يعد ممسكا بزمام السلطة بشأن مسجد ميونيخ بعد ... المسجد الذى يعد أداة تتيح له السيطرة على أولئك المسلمين. وقد سعى "فون منده" إلى إقامة علاقات جديدة، فقام باى ميرزا هاييت باختراق أحد التجمعات الطلابية الإسلامية فى كولونيا[٩٦]، بينما شرع "فون منده" فى إمداد التجمع بالأموال ... إلا أن "فون منده" كان ينشط على الهامش. إذا ... فقد انتصر سعيد رمضان.

ويبدو أن جهاز استخبارات ألمانيا الشرقية "الشتازى" قد علم بما آل إليه أمر "غرهارد فون منده" من عزلة وتهميش. ففى السادس عشر من كانون الثانى/ يناير

١٩٦٢، عمد عملاء "الشتازي" إلى إنهاء عملية "الهجرة الآسيوية"، والتي استمرت طيلة سنوات سبع، تم خلالها إخضاع نشاط "فون منده" ومنظمته للمراقبة. هذا، ولعل "الشتازي" قد سره إضعاف شوكة "تيودور أوبرليندر" – رئيس "فون منده" القديم، أو لعله قد بلغ المنتهى في توجيه ضربات إلى جماعة "الأوستمنستريوم". وعلى أية حال، لم يعد "فون منده" ذا أهمية – حينها ... فحتى حكومة ألمانيا الغربية قد عمدت إلى إعادة ترتيب سلم أولوياتها، إذ كانت تأمل في تحسين علاقاتها مع الشرق – وهو ما مثل البذور الأولى لسياسة "الوفاق". أما باي ميرزا هاييت، فسيتم إرساله إلى محفل جديد ... إلى "دلهي" الهندية، حيث أخبرته وزارة الخارجية الألمانية بتخفيض حدة نبرة الرطانة المعتمدة. إن أمثال تلك العمليات لم تكن لتخطر بالبال قبل سنوات قلائل ماضية.

أما "فون منده"، فقد بدأت أعصابه تستثار ... إذ عانى أزمة قلبية شديدة في عام ١٩٥٦ حيث أمره الأطباء بالإقلاع عن التدخين، فامتثل الرجل للأوامر. إلا أنه شرع ثانية في التدخين في عام ١٩٦٣ . أما الأعمال التي كان يضطلع بها، هو وهاييت، فكان لها آثار جسام. ففي يوم الإثنين – السادس عشر من كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣، كان "فون منده" بمكتبه المطل على نهر "الراين"، حيث كان يقرأ واحدا من التقارير الاستخباراتية العديدة التي حفل بها مكتبه. وكان التقرير موجزا للأحداث الجارية – أنذاك – في الاتحاد السوفييتي. وعلى مكتبه، فيما الملف قابع بصفحاته المشرعة قبالته، عصفت أزمة قلبية بالرجل لترديه صريعا في الحال.

وبوصفه منسقاً استخباراتياً، لم يكن "غرهارد فون منده" متقولبا في أنموذج نمطي ... إذ لم يعمل الرجل لحساب جهاز الاستخبارات الألماني، كذا فلم يعمل لدى المكتب الاتحادي لحماية الدستور. إلا أنه – وبالمقابل – كانت ترد إليه الأموال من كل حدب وصوب ... إذ كان المكتب الاتحادي لحماية الدستور يقوم بتمويله،

وهكذا فعلت وزارة خارجية ألمانيا الغربية. أما منظمة "فون منده"، فكانت أقرب ما تكون إلى شركة نمطية من الشركات الألمانية متوسطة الحجم، تلك التى كانت تمثل العمود الفقرى لاقتصاد ألمانيا الغربية آنذاك. لقد كان مكتب "فون منده" يقع أسفل شقته السكنية مباشرة. أما زوجته، كارولين اسبيزيت، فقد اضطلعت بدور هام فيما اختص بعمله، خاصة حين ارتبط دورها بالتعامل مع العالم الناطق بالإنكليزية، أو بتلك الاجتماعات شديدة الأهمية مع أولئك المنتمين إلى الاتحاد السوفييتى ... أما الأبناء فقد ساعدوا فى الأعمال الإدارية المكتبية.

هذا، وقد وافقت وزارة الخارجية الألمانية على أن تتكفل بنفقات جنازة فون منده "تقديرا للخدمات الجليلة التى أسداها الفقيد لوطنه كرئيس لمكتب "أجانب بلا وطن"، ومكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية". إلا أن الوزارة اشترطت اشتراطا واحدا ... "إنه ليتعين أن يعامل الأمر بسرية تامة، والحرص الشديد على ألا تبدو وزارة الخارجية الألمانية – على الملأ – كداعم مالى".

لم يكن إيجاد خليفة لفون منده بالأمر الهين ... إذ استلزم براعة ومهارة. أما حكومة ألمانيا الغربية، فقد فكرت فى "زيغفريد أونغرمان" ... ضابط اتصال الاستخبارات الاتحادية الألمانية خاصة "فون منده"، إلا أن هذا الطرح قوبل بالرفض بوصفه مهمة شديدة التعقيد يصعب تنظيمها ... إذ كان المفترض أن تعطى منظمة "فون منده" الانطباع بكونها مستقلة عن الحكومة، فكيف يتفق هذا و"أونغرمان" نفسه موظف حكومي؟! هذا، وقد احتشد العديد من اللاجئين لتأييد "أونغرمان" – أو أياً غيره – لخلافة "فون منده". وفى النهاية، قررت الحكومة أن تغلق النشاط برمته.

أفضى ذلك كله إلى مشهد غير سار: إذ اتضح أن ابن "فون منده" وابنته قد

كانا يتلقيان مبالغ كأبيهما، ومن ثم فقد طالبا بتعويضات. كذا، فقد زعم ابنه، إيرلنغ، أن بعض الأغراض العائلية قد تم الاستيلاء عليها من مكتب أبيه. أما لاحقا، فقد سألت زوجته، كارولين اسبيزيت، ما إذا كان يمكنها استخدام اسم "مكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية" ... ومن الجلي أنها أرادت أن تحتفظ بديمومة سير نشاط المنظمة كـ"بيزنس" عائلي، إلا أن وزارة الخارجية الألمانية قد قابلت طلبها بالرفض. كذا، فلم تسلم ملفات "فون منده" من النزاع عليها. فبعد عام تقريبا من وفاته، ظلت أوراق "فون منده" في خزائن للحفظ غير مؤمنة في مكتبه المطل على نهر "الراين" ... وقد خشي المسئولون أن تقع جملة من تلك الأوراق - وجلها قد مهر بخاتم "سري للغاية" - في أيدي "الأعداء".

هذا، وقد احتفظ ابنا "فون منده" بأوراقه الشخصية، بالرغم من أن العديد منها كانت أوراق خاصة بالعمل. لم يكن مآل أوراق "فون منده" الخاصة بالعمل، والتي انتظمتها مائة من المجلدات الضخمة على نحو التقريب، أرشيف الاستخبارات الألمانية - حيث كانت لتحفظ مثل ملفات "وكالة الاستخبارات المركزية" - في خزائن محكمة، إن لم يتم إعدامها في الحال. وبالمقابل، وفي أعقاب جدال ومشاحنات بيروقراطية معقدة، آلت تلك الأوراق إلى وزارة الخارجية الألمانية. وبعد عقود قلائل، تم الإفراج عنها، وأضحت - الآن - متاحة للعامة.

ومع رحيل "روبرت دريهر"، ووفاة "غرهارد فون منده" ... ترجل المتنافسان الغربيان ورحلا عن الساحة. أما المصالح الأمريكية، فكان لها وجهة أخرى - وبخاصة صوب فيتنام، فاهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالإسلام كسلاح من أسلحة الحرب الباردة لم يكن ليعاد إحياؤه إلا بعد خمسة عشر عاما ... حين قام الاتحاد السوفييتي بغزو أفغانستان. هذا، وقد عمد مكتب التقييم النهائي التابع للبنتاغون الأمريكي بتفويض مؤسسة RAND بكتابة تقرير عن توظيف "غرهارد

فون منده" للمسلمين. أما "ألكس ألكسييف"، وهو باحث مغامر، فقد كتب تقريرا عن الأوستمنستريوم ... ذلك التقرير الذى لم يتم الإفراج عنه بعد، وهو بعنوان "القوميات السوفييتية فى الاستراتيجية الألمانية إبان الحرب الكونية الثانية ١٩٤١-١٩٤٥". وقد أوضح "ألكسييف" الدلالات بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية حين عكفت على تسليح المسلمين السوفييت لمجابهة "موسكو". ويذهب التقرير إلى أن "تلك الدراسة ينبغى أن تكون محل اهتمام القائمين على التخطيط العسكرى والاستراتيجى الذين يشرعون فى تناول قضية القوميات السوفييتية من منظور استراتيجى". ويمضى "ألكسييف" متذكرا الأوستمنستريوم، وكيف كان الألمان ذوى فاعلية فى استغلال الانقسامات التى اتسمت بها الإثنيات المنتمية إلى الاتحاد السوفييتى. وبما أن العديد من تلك المجموعات الإثنية قد كونت جزءا من الجيش السوفييتى الذى كان قد غزا أفغانستان لتوه، كان لدى الولايات المتحدة فرصة لتكرار تكتيكات الألمان وتجنب الوقوع فيما وقعوا فيه من أخطاء. كذا، فقد أشار "ألكسييف" إلى أن العديد من أفراد تلك المجموعات الإثنية يعيشون أيضا فى أفغانستان بما يمنحهم مسوغا قويا لمحاربة "موسكو".

لقد كانت الدراسة التى أعدها "ألكسييف" جزءا من نقاش أوسع أفضى إلى تسليح الجهاديين الإسلاميين لمحاربة السوفييت. لقد كان الأمر شبيها باستغلال الألمان البارع لهم ... فالألمان قد زرعوا أمين الحسينى - مفتى القدس - وأنشأوا مدارس دينية تم فيها تقديم دورات لتأهيل الدعاة. كذا، فقد سعوا إلى تعيين زعماء دينيين فى مناطق تجمع المسلمين السوفييت ... كل ذلك بغرض تحفيز القوات المسلمة على القتال. وعلى صعيد آخر، كان لدى واشنطن سابقة أكثر جلاء لدعمها للمجاهدين الأفغان، ألا وهى دعمها لحلفاء أمين الحسينى - جماعة "الإخوان المسلمين". وفى دعمها لسعيد رمضان، فقد ربطت واشنطن نفسها فى تحالف مع

جماعات المقاومة الإسلامية السرية - التى تعد الإلهام الحقيقى لمن صار يطلق عليهم اسم "المجاهدين الأفغان". ونظرا لعدم قدرتنا على الولوج إلى ملفات "وكالة الاستخبارات المركزية"، فإنه لا يمكننا تقرير وجود ارتباط سببى يربط ما بين ميونيخ وأفغانستان، إلا أنه من الأرجح أن يكون الاستخدام المبكر لجماعة "الإخوان المسلمين" قد جعل من السهل على الاستخبارات الأمريكية أن تقوم بتسليح الأفغان. وحين أوقفت الولايات المتحدة دعمها بعد عقدين من الزمان، وتحديدا فى أعقاب أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، لجأ الكثيرون إلى النظر إلى أفغانستان على كونها المرتكز التاريخى الذى ارتكن إليه هذا الهجوم ... إن تحليل الأمر على هذا النحو قد كان صائبا، بيد أن قليلين فقط هم من أدركوا أن الأنموذج الأولى لمثل هذا كان مرتكزه فى ميونيخ بألمانيا.

وكانت ألمانيا الغربية - بالفعل - قد شرعت تمضى قدما صوب "التقارب" مع الكتلة الشرقية، فلم يعد مسئولوها - إذاً - فى حاجة إلى المسلمين، إلا قليلا ... فموت "غرهارد فون منده" قد أنهى مراقبة ألمانيا الغربية للجماعات الإسلامية الراديكالية حتى تسعينيات القرن العشرين، حين أفضت نشأة تنظيم "القاعدة" وانتشار الإرهاب الإسلاموى إلى إعادة توجيه أنظار الاستخبارات الألمانية ثانية نحو تلك الجماعات. وحينها - فقط - أخضع مسجد ميونيخ والطلبة العرب - الذين أضحوا اليوم من كبار السن - إلى مجهر الفحص والمراقبة مرة أخرى.

إلا أن جماعة واحدة قد أبقيت على خشبة المسرح، ألا وهى جماعة "الإخوان المسلمين" ... فأعضاؤها لم يفقدوا حماستهم ولم تتشتت رؤاهم ... لذا، فقد أفادوا من موطئ القدم هذا الذى أتاحته ألمانيا الغربية والاستخبارات الأمريكية لهم. وبتؤدة وهدوء، عمد الإخوان المسلمون إلى تحويل مسجد ميونيخ إلى قاعدة انطلاق لاختراق العالم العربى.